

الواضح في علم اللغة المعاصرة الحادية عشر أ.د: خميس فزاع عمير

ال التداولية

جاء في اللسان قوله: تداولنا الأمر: أخذناه بالدول. فقالوا: دوالك؛ أي مداولٌ على الأمر. ودالت الأيام؛ أي دارت، والله يداولها بين الناس وتداولته الأيدي؛ أي أخذته هذه مرّة، وهذه مرّة. والماشي يداول بين قدميه؛ أي يراوح بينهما.

والملاحظة التي نخرج بها من هذا المعنى المعجمي لمادة "دول" هي: أن المعاجم العربية لا تكاد تخرج في دلالاتها للجذر "دول" عن معانٍ التحول، والتبدل، والانتقال من مكان إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى؛ وهذا يقتضي بالضرورة وجود أكثر من طرف في حقل التحول هذا. وإذا ما ذهبنا نطبق هذا المعنى على اللغة، فإنها - اللغة - متولدة من حال المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع، ثم هي متقلبة بين الناس، يتداولونها بينهم ومن المعروف أيضاً أن مفهومي "النقل، والدوران" مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة، كما أنهما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: "نقل الكلام عن قائله"، بمعنى رواه عنه، ويقال: "دار على الألسن" بمعنى جرى عليها، فالنقل والدوران يدلان في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل بين الناطقين، ويدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، فيكون التداول جاماً بين اثنين هما: التواصل، والتفاعل.

فالصيغة الصرفية التي جاء عليها المصطلح (تفاُلٌ وتفاُلٌية) تفيد عند الصرفيين معنى المشاركة بين طرفين (المُرْسَلُ، والمُرْسَلُ إِلَيْهِ)، مما ينقل النص من فردية المبدع إلى ثنائية التفاعل بين المُرْسَلُ والمُرْسَلُ إِلَيْهِ، ويفضي عليه سمات تتجزئية، ووظيفية تداولية ما كانت لتحقق لو كان النص مكتوباً بعيداً عن وظيفته الإبلاغية.

ال التداولية اصطلاحاً:

تعُدُّ التداولية المقابل العربي للمصطلح الإنجليزي (Pragmatics)، الذي يعود إلى الفيلسوف تشارلز موريس ١٩٣٨ وفي هذا المقام يجب أن نفرق بين مصطلحين هما: "براجماتكس" الذي يستخدم في المجال اللساني ويشيع ترجمتها إلى العربية بالتداولية؛ لأنها توفي المطلوب حقه، بوصف دلالته على معنى الاستعمال والتفاعل معاً و"براجماتزم" الذي يستخدم في مجال الفلسفة ومن الترجمات الأخرى الذرائعة، والنفعية، والبراغماتية.

أما التداولية اصطلاحاً فهي دراسة كل جوانب المعنى التي تهمها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالية على دراسة الأقوال التي تتطبق على شروط الصدق، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تتطبق عليه هذه الشروط.

وقد لخصت (فرونسواز ارمانيكو) هذه المعطيات على تسع لفظات:

أ. من يتكلم؟ (المتكلم/المبدع).

ب. مع من تتكلم؟ (المستمع/المتلقى).

ج. لأجل ماذا نتكلم؟ (مقاصد الكلام)

د. ما هو مصدر التشويش والإيصال.

كيف نتكلم بشيء، ونريد قول شيء آخر؟ (السياق).

بنية الفعل الكلامي:

رأى (أو سمع) أن الفعل الكلامي يتكون من ثلاثة أفعال تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد هي:

١- الفعل اللفظي (فعل الكلام) أو (فعل القول): ويقصد به النطق ببعض الألفاظ أو الكلمات أي إحداث أصوات على أنحاء مخصوصة متصلة على نحو ما بمعجم معين، ومرتبطة به، ومتسمة به، وخاضعة لنظامه.

٢- الفعل الإنجازي (قوة فعل الكلام) أو (الفعل المتضمن في القول): ويقصد به إنجاز فعل في حال قول شيء ما مع مراعاة مقتضى المقام.

٣- الفعل التأثيري (لازم فعل الكلام) أو (الفعل الناتج عن القول): والمقصود به الآخر الذي يتركه المتكلم في نفس المتكلمي ، لأن قول شيء ما قد يترتب عليه أحياناً أو في العادة حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره وتصرفاته من قبول أو غضب أو حزن أو فرح... الخ

فهي دراسة اللغة في الاستعمال والتواصل، في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبيها النحوية، أو قل هي دراسة الكلمات والعبارات، والجمل كما نستعملها، ونفهمها، ونقصد بها في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، وليس كما تترجحها كتب النحو التقليدية. ولنأخذ مثلاً كلمة (شكرأ) ففي لسان العرب تجد لها عدداً من المعاني، كالعرفان بالإحسان وغيره، وتنشأ لها دلالات جديدة في الاستعمال تتجاوز حدودها المعجمية، فربما قصد بها المتكلم التهم أو الضيق.

فالتدليلية تعدّ الضلع الثالث لمثلث يقوم ضلعه الأول على النحو، والثاني على الدلالة؛ إذ يشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض؛ أي علاقة المفردات، والأدوات، والروابط في العبارة الواحدة، والجملة، والنصل. أمّا علم الدلالة فيتناول تلك العلاقات بما تشير إليه، مثل ذلك كلمة (عسل)، فقد تأخذ مواضع مختلفة، مثل: عسل النحل، العسل فيه شفاء، شراب العسل، وغيره، ومن ناحية المعنى تشير إلى الصفاء، والشفاء، والمذاق الحلو.

ومن الناحية التداولية، تكتسب المفردة دلالات متباعدة، وربما متناقضة، كالمرح، والوصف وغيره، وذلك بحسب السياق المقامي في الاستعمال الواقعي اليومي.

وتظهر وظيفة التداولية في ستة عناصر رئيسة: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع، واللغة؛ إذ يرسل المرسل رسالة إلى المرسل إليه، تتضمن موضوعاً أو مرجعاً معيناً، وتحتاج هذه الرسالة بلغة يفهمها كل من المرسل والمتكلمي. ولكل رسالة قناة حافظة كالظرف بالنسبة للرسالة

الورقية..... واللغة بالنسبة لمعاني النص الإبداعي ويعني هذا أن اللغة ذات بعد لساني وظيفي، وأنها ستة عناصر، وست وظائف، هي:

المرسل ووظيفته انفعالية تتضمن قيماً، ومواقف عاطفية، ومشاعر وأحاسيس يسيطرها المتكلم. والمرسل إليه، وهو المخاطب ووظيفته تأثيرية؛ إذ يتم التأثير عليه بغية إقناعه. وتكون العلاقة بين المرسل والمتلقى إيجابية أو سلبية.

والرسالة التي تتجسد في وظيفة التواصل المعرفي.

والمرجع وظيفته مرجعية، والوظيفة المرجعية تتركز على وظيفة الرسالة بوصفها مرجعاً، وواعداً رئيساً تعبر عنه تلك الرسالة. وهذه الوظيفة في الحقيقة موضوعية لا وجود للذاتية فيها، نظراً لوجود الملاحظة الواقعية، والنقل الصحيح، والانعكاس المباشر.

والقناة وظيفتها حفاظية؛ أي الحفاظ على عملية التواصل والإبلاغ وعدم انقطاعه.

وأخيراً اللغة وظيفتها تفسيرية، وتقوم على الشرح والتفسير والتأنيل، للوصول إلى وصف الرسالة لغويًا، بالاستعانة بالمعجم، والقواعد اللغوية والنحوية المشتركة بين المرسل والمسلم إليه.

ومن اللافت للنظر أن هذه الوظائف تقوم على عناصر، هي:

- عنصر ذاتي يتمثل في التعبير عن معتقدات المرسل، ومقاصده، واهتماماته.

- عنصر موضوعي يتمثل في غلبة كل وظيفة على نوع خاص من ألوان الرسائل.

- عنصر تواصلي بين المرسل، والمتلقى يدلّ على معرفة مشتركة بينهما.

نشأة التداولية

يعود استعمال مصطلح التداولية إلى الفيلسوف تشارلز موريس انطلاقاً من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات، أو السيمائية من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع، هي:

الفرع الأول: النحو أو التركيب (Syntax): وهو دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها ببعض.

الفرع الثاني: الدلالة (Semantics): وهي دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

الفرع الثالث: التداولية (Pragmatics): وهي دراسة علاقة العلامات بالأشياء بمستعمليتها وبمؤوليتها.

ويمكن القول: إن مبتعد التداولية المفترض هو تشارلز بيرس إلا أن تلميذه موريس هو الذي أدخلها ضمن إطار نظري، يعني فيه هذا المصطلح "العلاقة بين العلامات ومستعمليتها".

أما عن نشأة التداولية، وظهورها في الفكر اللساني الغربي الحديث، بحيث أصبحت تياراً موازياً لتيار البنوية، وتيار التوليدية التحولية، فقد اتفق الدارسون على أن التداولية لم تصبح مجالاً يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتسبين إلى التراث الفلسفى لجامعة أكسفورد؛ هم: أوستن، وسيرل، وجرايس، وكانوا جميعاً مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية بإبلاغ مرسل رسالة إلى مرسل إليه يفسرها، وهذا من صميم التداولية.

ويمكن إرجاع نشأة التداولية - بمفهومها اللغوي - إلى سنة ١٩٥٥ م عندما ألقى أوستن محاضراته في جامعة (هارفارد)، ولم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فلسفى للسانيات، فقد كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفى جديد هو فلسفة اللغة.

تمثالت التداولية في اللغة وال نحو

ظهر لدينا أن مبادئ التداولية الحديثة ماثلة في تراثاً اللغوي والنحوى، ولو بمصطلحات مختلفة، وذلك من بداية طلائع الدرس اللساني، وصولاً إلى النقاد والبلغيين المتأخرين. كما وجدنا عند الأصوليين اهتماماً كبيراً بأطراف العملية التخاطبية أكثر من اهتمام اللغويين، والنحوين، والبلغيين، وذلك بقدر ما يعود إلى اهتمام كل فريق. فالنحويون صبوا اهتمامهم على وصف الطريقة الأسلام للفعل، وأن يفهم المعنى العام للخطاب في جانبيه: الدلالي والمعجمي. في حين انصب اهتمام البلغيين على الإنشاء والخبر، وأضرب الخبر، وبدأ الإفادة، ومراعاة الغرض، وهذا هو الذي نشأت من أجله التداولية.

أما علماء الأصول فكانوا من أفضل من استثمر التداولية في ظاهرة الخبر والإنشاء معتمدين مقولات ومبادئ سياق الحال، ووضع المتكلم وموقعه من العملية التواصلية، وغرضه من الخطاب، وطبقوها على نصوص القرآن والسنة، بغرض دراسة المعانى الوظيفية لتلك النصوص؛ لتعلق تلك النصوص بالأحكام الشرعية التي تؤثر في حياة الناس، فنجد هم اهتموا بأطراف الحكم الشرعي، وهي: الحكم وهو الله تعالى، والحكم وهو مضمون الخطاب للعباد المكلفين، ثم المحكوم فيه وهو الشأن المتعلق به الحكم، وأخيراً المحكوم عليه وهو المكلف، مع مراعاة حال المخاطب، وسياق الموقف الذي قيل فيه.

هذا وتدرس التداولية اللغة عند استعمالها في طبقات مقامية مختلفة؛ أي بوصفها كلاماً محدداً صادراً عن مرسل محدد إلى مرسل إليه محدد. وتنأسس الاستدلالات التداولية على "أعراف" اجتماعية، وإن كانت نسبية، فمثلاً قولنا: "لا شكرأ" لمن قدم لنا شيئاً لا نريده، فالسياق المقامي يعد مفهوماً تداولياً راسخاً، ينظر عادة إلى المقام على أنه معيار من معايير الحكم على العبارة بالقبول من ناحية لغوية؛ إذ إن العبارات غير المكتملة لغويًا قد

تكون منسجمة مع المقام، فتصبح صحيحة ومحبولة، والعبارة السابقة "لا شكرًا" غير مستقيمة لغويًا؛ لأن المعيارية النحوية ترفض هذا التركيب من ناحية المعنى، لكن الواقع الاستعمالي أو السياق المقامي يأخذ به، ومن ثم يصبح مفهوماً، ومتدالواً، ومحبولاً.

وكذلك لو شاهدنا جنaza تُحمل على الأكتاف، ويسأل سائل: مَن المتوفى؟ فيجاب: فلان. فالمتداول كلمة المتوفى، تعني الإنسان أو الكائن الحي، لكن المنطوق اللغوي يخالف ذلك مخالفة كبيرة، إذ المتوفى هو الله، والمتوفى هو الإنسان، ولو أجب السائل - عند سؤاله مَن المتوفى - بالقول: الله لقامت الدنيا ولم تقعد على رأس المجيب، ووقع ما لم تحمد عقباه.

ومثله قول أحدهم لآخر "لا عافاك الله" ليس المقصود الدعوة عليه بعدم المعافة، بل الدعوة له، لكن منطوق العبارة التداولي هو: لا عافاك الله، في حين أن منطوقها اللغوي غير ذلك، ويفضي إلى الدعوة عليه.

ومثل ذلك كثير، وأحياناً نسمع من بعض من لهم قليل من المعرفة اللغوية، يقولون لمن يقول هذه الجملة وأمثالها، قل: لا وعافاك الله، أو لا (ثم سكتة خفيفة) عافاك الله.

وثمة أمثلة كثيرة من المتداول تخالف قواعد اللغة، منها:

قرأت صفحة الوفيات ← وصوابه الوفيات.

أقيمت دورة رياضية بإشراف خبراء أكفاء ← والصواب أكفاء.

مدراء الدوائر مجازون ← مدير الدوائر مجازون.

كلما زاد عدد الطلبة كلما زاد عدد المدارس ← كلما لا تكرر.

استبدلت السيارة القديمة بالجديدة ← الباء تكون مع المتروك، أي أنه أخذ الجديدة وترك القديمة، لكن منطوق الجملة أنه أخذ القديمة وترك الجديدة.

سحب شکواه ← استرد شکواه.

أما الاستعمال المتجدد الذي يتجدد بمقاصد المتكلمين، فهو غير ذلك، فما دامت الرسالة قد وصلت واضحة ومفهومة، فلا مجال للحكم على الكلمة أو الجملة بالخطأ اللغوي أو النحوي، فكل الجمل السابقة أخذت بعداً تداولياً شائعاً في المجتمع بين مرسل ومرسل إليه، بل إن الخروج عن هذا المتداول خروج على أعراف المجتمع اللغوية، فيما يخاطبون به. ومما يعذ من التداولية أيضاً الحذف، والترتيب، والتغريم، وبعض الأساليب كالاستفهام،

والتعجب، والتحذير، والإغراء، والاختصاص، وكم الخبرية والاستفهامية، وغيره.

أما الحذف فيعني أي نقص في الجملة الاسمية أو الفعلية، ولا يكون إلا لغرض في المعنى، وتبقى الجملة معه تحمل معنىً يحسن السكون عليه، ومثاله: إنْ سأْلَ سَائِلَ قَائِلًا: مَنْ حَضَرْ؟ وأجيب: مُحَمَّدٌ، فَإِنْ كَلْمَةُ (مُحَمَّدٌ) فِي سِيَاقِهَا الْمَقَامِي تَحْمِلُ مَعْنَىً يَحْسَنُ السُّكُونَ عَلَيْهِ؛ أي أنه مفهوم، وقد حذف الفعل هنا لقصد الإيجاز، وهو من ثم أمرٌ متداول وشائع، وكثير.

وقد اهتم العرب بالحذف، لما له من دور في إغناء العربية، ولما عليه جرت عادة العرب من حذف الجملة، والمفردات، والحراف، والحركات، كما قرر ذلك المتقدمون، منهم ابن جني، وما أكده سيبويه من حذفهم الكلم، واستغناهم بالشيء عن الذي من حقه أن يستعمل، وأنه لكثرة الاستعمال صار مألوفاً في أساليبهم معروفاً عند عامتهم.

والحذف لا يكون إلا إذا كان المخاطب عالماً به، فيعتمد المتكلم على بديهة السامع في فهم المذوق.

وإذا ذهبنا نتبع الأثر الدلالي والتدابري، فإننا نجد كثيراً في كتاب الله تعالى، وحديث رسول الله ﷺ وما هو متداول وشائع بين الناس، ومنه:

كيف الامتحان؟ جيد، وكلمة (جيد) في سياقها التدابري تحمل معنىً يحسن السكوت عليه.

وكذلك عند زيارتنا لمريض، نقول له: كيف صحتك؟ أو كيف أصبحت؟ فيقول: بخير، أي أنا بخير، أو صحتي بخير، وكلمة (بخير) في سياقها تحمل معنىً يحسن السكوت عليه.

ويقول آخر: حفظت القرآن الكريم، فيقال له: نعم الحافظ والمحفوظ؛ أي نعم الحافظ أنت، ونعم المحفوظ القرآن.

فهذه الجمل وغيرها ممّا ورد له بعد دلالي وتدابري، وله من الأسرار ما لا يخفى على الباحثين.

والترتيب في عناصر الجملة يعدّ من باب التدابيرية، فهو تغيير في تركيب الجملة، يعمد فيه المرسل إلى ما حقه التأخير فيقدمه، أو إلى ما حقه التقديم فيؤخره كتقديم الفاعل على الفعل، أو المفعول على الفعل، أو تقديم

الخبر على المبتدأ... إلخ، لإجراء تغيير في المعنى، وقد تناول القدماء هذا الأسلوب، ودرسوه بعناية، ويعدّ فنا من الفنون التي يأخذ بها أصحاب البيان في الأساليب يقول الجرجاني: " هو باب كثير الفوائد، جمّ المحسن، واسع التصرف، بعيد الغاية...، ثمّ تنظر فتجد سبب أن رافقك، ولطف عنك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان ^(١)". وقال الزركشي: "... ويقع في الكلام في فصول من حيث المعنى" وهو عند سيبويه للعناية والاهتمام وقد وضع النهاة الشروط الناظمة له، وتحذّثوا عمّا يجوز، وما لا يجوز، ووجوهه، وأضربه، نجد ذلك بالتفصيل في كتب النحو.

والتقديم والتأخير عند النحويين يتعلق بالبنية الداخلية المرتبطة بالمعنى في ذهن المتكلم، وهو الطرف الأول في العملية التداولية، فإذا ما نظرنا إلى الحمل الآتية:

احترم أبي عمي.

يكرم موسى عيسى.

ساعدت سلوى ليلي.

وهذه جمل متداولة هي وأمثالها، وهي جمل - ومن ثمّ - تقدم فيها الفاعل وجوباً عند النحويين؛ لعدم وجود قرينة لفظية (عالمة إعرابية) تعين أحدهما من الآخر.

ويجعل عبد القاهر الجرجاني حصول الفائدة متوقفاً على مراعاة حال المخاطب، وحال المخاطب يعدّ ضابطاً مؤثراً في توجيه كلام المتكلم.

وتأسيساً على هذا التحليل التداولي، والفهم العميق لسياق المقام، يرى عبد القاهر الجرجاني "أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم"، فقولنا: الشعب يريد، غير قولنا يريد الشعب، فالشعب فاعل تقدم على فعله للعناية والاهتمام، فأصل الجملة: فعل + فاعل / وبالتقديم أصبحت الجملة فاعلاً مقدماً لغرض العناية والاهتمام + فعلاً، ولا شيء فيها من الاسمية (م + خ).

والذي يبدو لي أن عبارة العناية والاهتمام التي جاءت على لسان القدماء تتسم بالعمومية، والأولى أن نقول: بأن التقديم والتأخير حصل لأسباب تداولية، إذ يركز المرسل على تقديم الجزء المجهول من الكلام عند المرسل إليه. فإذا كان يعرف الفاعل ويجهل الفعل يقدم الفعل، وقد يحذف الفاعل؛ لأنّه معلوم. وهنا يكمن الفرق بين التحليل التداولي والتحليل النحوي أو البلاغي القديم.

وتتجلى التداولية في التحذير والإغراء كذلك، فالتحذير هو تنبيه المخاطب، وتخويفه من أمر مكروه أو قبيح ليجتنبه، والإغراء هو ترغيب المخاطب أو حثّه على أمر محمود ليفعله، فقول أحدهم لولده: الصلاة الصلاة، أو السيارة السيارة، وغيرها من التراكيب التي يقصد بها المتكلّم تحذيراً أو إغراءً، دون أن يسمّي ذلك، لكن العُرف والاستعمال التداولي يجعله ينطّق بهذه التراكيب، والسامع يفهم بعدها الدلالي، فلا يعقل أن يحذر الوالد ولده من الصلاة أو الدراسة، أو يرحب بالسيارة في موقف مقامي لا يدل على الترغيب، بل التحذير من سيارة قادمة مسرعة، ومن ثمّ عليه أن لا يقطع الشارع.

وتطبّقاً لما جاء في الدراسات اللغوية المعاصرة، وبخاصة في الغرب، فإن للتغيم وظيفة نحوية دلالية مهمّة، ولا يكون - كما أسلفت - إلا لمعنى، ومن ثم يعد العنصر الرئيس في التمييز بين الجمل، فالجملة "حضر خالد" جملة تقريرية خبرية إذا نطقت بتتغيم مستويٍ، ولكنها جملة استفهامية إذا نطقت بتتغيم صاعد.

وقد ورد منه في القرآن الكريم: "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواناً"، فالله تعالى لا يسألهم وهو العليم بحالهم، إنما يتعجب من كفرهم على الرغم من وجود الآيات الدالة على وحدانيته.